

هَلْ كَانَتْ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةً خَلِيلِ الرَّحْمَنِ؟

الأستاذ علي الخطيب ، مجمع بحوث الإسلاميه ، القاهرة

صفحات عدة من هذا السفر العظيم (1)، نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما يأتي :

1 - تحدث عن الشخصيات الطاهرة التي نزلت مكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء ، وهم : الخليل إبراهيم ، وهاجر وإبنهما الرضيع اسماعيل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

2 - نبع زمزم لهاجر وولدها .

3 - قدوم بطن عربي جرهمي واستئذانه هاجر في السماح له بالإقامة في مكة راضين شرطهما « الا حق لهم في الماء » ، واستقدموا اهلا لهم ، وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم ، وتزوج منهم مرتين .

4 - زيارات ثلاث لل خليل الى مكة لوديعته - هذا الاولى التي قدم فيها بأهله اليها ، وكان آخرها تلك الزورة التي بنى فيها البيت مع ولده - عليهما الصلاة والسلام - وأمر فلان في الناس بالحج .

وهذا الحديث الشريف يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث :

اولها : بيانه الواضح من مبدأ تاريخ العمران في مكة ، والذين يمتنون بتسجيل العصر التاريخي للامم القديمة ليس امامهم وثيقة أدق من هذا الحديث لبيان بدء العمران بمكة وارتباع الناس فيها وسكناهم بها ، فاذا كان الخليل - صلوات الله عليه - قد عاش

لغة خليل الرحمن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - شغلت الباحثين من علماء الأديان في العصر الحديث ، وبخاصة بعض الذين يهمهم أن ينحرفوا بحولهم في اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسج بسببه العرب من صلتهم بال خليل ، على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام .

واذكر ان الاستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - قد وضع كتابه : « ابو الانبياء : الخليل إبراهيم » و « الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين » وتصدى فيهما لهذه القضية واستطاع أن يرد الى نحر المنحرفين سهامهم . وتبع - رحمة الله عليه - منهج « تقصي الحقائق » في بحثه الذي اشتمل عدة مناهج تلاقت نتائجها في النهاية عند حقائق مشيرة تثبت صلة إبراهيم الخليل الوثيقة بالعروبة في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد .

ونحن نقتصر هنا - مستعينين بالله - على منهج « الحديث النبوي الصحيح » في الكشف عن لغة خليل الرحمن ، فان السنة المطهرة قد استقام بها كثير من حقائق التاريخ والكون حين تعرض لها رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الامام البخاري رضي الله عنه في صحيحه حديثا ، رواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أبان من امر الخليل بمكة وأفاض فيه حتى ليكاد يكون الحديث الوحيد الذي استنوب

(1) صحيح البخاري 172/4 مطابع الشعب بالقاهرة 1378 هـ

بين القرنين السالفين من قبل الميلاد ، كان ذلك يعني ان هذه الفترة مبدا دخول مكة عصرها التاريخي .

ثانيهما : يوضح هذا الحديث الشريف في جلاء نادر « حلقة مفقودة » لدى المؤرخين الذين توصلوا الى ممالك الاسماعيليين في شمال الجزيرة مثل : تيماء ، ودومة الجندل وغيرهما ، دون ان يصلوا - عن طريق منهجهم - الى «مهاد» هذه الرؤوس الشريفة من ابناء اسماعيل ، اعني الصدر الاول من ابنائه لا احفاده ومن بعدهم ، فقد ظلت هذه المهاد حلقة مفقودة الا في هذا الحديث ، فهو وحده الذي يقدمها عبر ضوء شديد ينير من حولها كل السبل ويقطع بان الاسماعيليين صعدوا من الجنوب (مكة) فامتلكوا في الشمال (اعالي الجزيرة) وليس العكس.

ثالثها : لغة خليل الرحمن - على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ، وهنا يعني ان نتحدث عنها وحدها دون ان نتعرض للغة اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك لامر واحد ، هو ان اسماعيل نشأ رضيعا في قبيلة جرهم وتلقى العربية عنهم ، وفي هذا الحديث الشريف جاء عنه .. « وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم » لذلك نريد ان نتحدث عن لغة خليل الرحمن وحده ، وهو الذي لم يقطن مكة ولم يجاور جرهم الا سويعات في الزيارة الثانية والثالثة ، ومدة بناء البيت في الرابعة . اما الاولى فلم يكن بمكة يومئذ احد وربما لم يمكث فيها ساعة من نهار ، وها هو الجزء من الحديث الخاص بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن «هاجر» - عليها السلام : ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في اعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ احد ، وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقا ، فتبعته ام اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ! اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : الله الذي امرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذا لا يضيعنا . ثم رجعت . »

ولا يمكن ان يقال : ان ابراهيم مكث شيئا ذا بال بمكة ، انه ما ان وضعهما حتى انطلق راجعا ، وبالتالي ما كان فيها من احد غير اهله .

ولما كانت الزيارتان الثانية والثالثة كلاهما ذا اهمية في الموضوع نسوقهما لنعرف منهما : ما لغة

خليل الرحمن عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ؟ وكلاهما كانتا بعد زواج اسماعيل صلى الله عليه وسلم . واسماعيل تزوج مرتين من قبيلة جرهم العربية ، قال :

« فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امراته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سالها عن عيشهم وهبشهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت اليه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابي ، فلما جاء اسماعيل كانه آنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسالنا عنك ، فاخبرته ، وسألني : كيف عيشنا ؟ فاخبرته : انا في جهد وشدة ، قال : فهل اوصالك بشيء ؟ قالت : نعم ، امرني ان اقرا عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك ، قال : ذاك ابي ، وقد امرني ان افارقك .. الحقى باهلك ، فطلقها »

هذه كانت الزيارة الثانية ، ويمكن ان يضع لها القاريء تقدير الوقت الذي استغرقته ، وهذه هي الثالثة .. قال :

وتزوج منهم (يعني من جرهم التي تزوج منها اولا) اخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم اتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امراته فسالها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف انتم ؟ وسالها عن عيشهم وهبشهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، واثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرايبكم ؟ قالت الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دها لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يشرب عتبة بابي . فلما جاء اسماعيل قال : هل اناكم من احد ؟ قالت : نعم ، انا شيخ حسن الهيئة ، واثنت عليه ، فسالني عنك فاخبرته ، فسالني : كيف عيشنا فاخبرته انا بخير ، قال : فاوصالك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك ان تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك ابي وانت العتبة ، امرني ان أمسكك . »

ونعيد لفت نظر القاريء الى النظر في قدر هذه الزيارة الزمني . ثم نلاحظ ان الخليل فسى كلتي

الزياديين اعقبهما بالرحيل فلم يمكث بمكة مقدار شهر او اكثر حتى نقول : انه اخذ اللسان العربي اiban اقامته .

واذا كان من الحقائق الهامة التى يقدمها هذا الحديث الشريف ان زوجتي اسماعيل : الاولى والثانية من جرهم - اذ نص على ذلك حيث يقول عن الاولى : « فلما ادرك زوجوه امرأة منهم » وعن الثانية « وتزوج منهم اخرى » . - فهذا يعنى ان كلا الكنتين هريبتان خالصتان ، ومن العسف ان يدعى مدع انهما تعلمتا لغة اخرى غير العربية .

كذلك ثبت لنا ان خليل الرحمن - على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام - لم يمكث بمكة قدرا يعلمه العربية ، وكان يخاطب كنتيه ، وقد انفرد بكل منهما - دون ثالث يمكن ادعاء انه ترجم بين لسانيهما .

وهذا امر يعنى - دون تردد - ان الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - كان ذا لسان عربي مبين فما كانت «المخاطبة» بينهما - فى كل مرة - كلمة عابرة تؤديها اشارة ، ولكنها حوار دار بين اخذ ورد انتهى بحكمه على كل منهما ، فواحدة كانت شؤم بيت زوجها والاخرى كانت حسنه وخيره

واذا كان الخليل - عليه السلام - ذا لسان عربي ولم يكن من اهل مكة ، ولا كان من اهل الجنوب (اليمن وما حولها) وكان من الشمال ، فهذا يعنى ان العربية كانت مسيطرة - كلفة حياة ومعاش - فى هذا الشمال الذى كان فيه الخليل وهنا نلتقى بالاستاذ العقاد - رحمة الله عليه - الذى يعطى بحثه نفوذ العربية القديمة فى شمال الجزيرة حتى تخطت العراق وما كان الى غربه وشماله .

وحتى يتم لقاء «علمي» بين الحديث الشريف و « التاريخ » فى منهجه الحديث ينبغي النظر فى الهجرات العديدة التى تمت فى العصر التاريخي لجنوب الجزيرة ، اعني منذ اربعة الاف سنة من قبل الميلاد ، فقد توالى هجرات منه الى الشمال فى خطين . وامتلكت بعض هذه القبائل الشمال ودان لها ، وفى منتصف هذه الاف الاربعة ظهر الخليل عليه السلام كمربي اصيل ، لانه منها ، ولانه يستحيل ايضا ان يدعو الى دين الله فى قلب الجزيرة ، ويؤذن للناس بالحج - وفى مقدمتهم جرهم القاطنة حول البيت - بلسان فير عربي ، قال تعالى : «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم (ابراهيم 4) والحج شريعة الخليل عليه السلام .

ولسنا نقول : انه عليه السلام تحدث بالعربية التى هي هريبتنا - اعني لغة القروان الكريم التى بها أنزل - لكنها هربية زمانه بفصاحتها ، وما من شك انها كانت وثيقة الصلة : اصولا وفروعا بهربية القروان الكريم .

ولقد اوحى الى رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ببعض دعائه فى تعويذة كان يعود بها ولديه : اسماعيل واسحاق عليهما الصلاة والسلام ، فعوذ بها المصطفى - صلى الله عليه وسلم ولديه : الحسن والحسين ، فقال : اميدكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »

قد لا تكون هين الالفاظ ، لكنها العربية ، وليس الفرق بينهما الا ان الاولى هربية الخليل عليه الصلاة والسلام ، والاخيرة هربية المصطفى خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .